أسلوب الالتفات وأقسامه في القرآن الكريم

إعداد: د. غالب بن محمد أبو القاسم الحامضي

أستاذ مشارك بقسم الكتاب والسنة

كلية الدعوة وأصول الدين

جامعة أم القرى

المقدمـــــة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد ..

فإن الالتفات يعد من أجل علوم البلاغة، ومن الأساليب البلاغية المهمة، وقد تناوله علماء التفسير والبلاغة منذ القدم، ونبهوا عليه منذ عهد بعيد، وما ذلك إلا لأهمية هذا الأسلوب في إيصال تلك المعاني العظيمة بأوضح صورة إلى ذهن السامع والقارئ وقد عرف العرب هذا الأسلوب قديماً وإن كان البعض لم يصرح به، ولعل من أوائل من أشار إليه في التفسير الإمام الفراء[1] في تفسير قوله تعالى: ﴿فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ﴾ (سورة البقرة، ٩١) حيث قال: كلمة تقتلون للمستقبل فكيف قال: من قبل؟ ونحن لا نجيز في الكلام أنا أضربك أمس، ولكن ذلك جائز إذا أردت بتفعلون الماضي، ألا ترى أنك تعنف الرجل بما سلف من فعله، فتقول: ويحك لم تكذب، لم تبغض نفسك إلى الناس. ومثله قوله تعالى:﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَـٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَـٰنَ﴾ (البقرة، ١٠٢)، ولم يقل ما تلت الشياطين، وذلك عربي كثير في الكلام[2].

وقال ابن عاشور: وهو بمجرده معدود من الفصاحة، وسماه ابن جني شجاعة العربية لأن ذلك التغيير يجدد نشاط السامع، فإذا انضم إليه اعتبار لطيـــف يناسب

---

(١) الفراء هو: العلامة صاحب التصانيف أبو زكريا يحيى بن زياد بن منظور الأسدي مولاهم الكوفي النحوي، صاحب الكسائي، قال ابن الأنباري: لو لم يكن لأهل بغداد والكوفة من النحاة إلا الكسائي والفراء لكفى. توفي سنة ٢٠٧هـــ. (السير للذهبي٣/٤١٦٤).

(٢) معاني القرآن، ص٦١.

يناسب الانتقال إلى ما انتقل إليه صار من أفانين البلاغة، وكان معدوداً عند بلغاء العرب من النفائس، وقد جاء منه في القرآن ما لا يحصى كثرة من دقة المناسبة في الانتقال[1].

ومما لا شك فيه أن أسلوب القرآن الكريم قد بلغ القمة في الفصاحة والبلاغة والبيان ومن هذه الأساليب أسلوب الالتفات الذي انبرى له أساطين علماء البلاغة والتفسير، واهتموا به ، قال ابن عاشور: وكذلك الإكثار من أسلوب الالتفات المعدود من أعظم أساليب التفنن عند بلغاء العربية فهو في القرآن كثير ثم الرجوع إلى المقصود فيكون السامعون في نشاط متجدد بسماعه، وإقبالهم عليه، ومن أبدع أمثلة ذلك قوله:﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾[2] الآيات(البقرة١٧-٢٠) .

وقال ابن الأثير الجزري[3]: "وهذا النوع وما يليه[4] من خلاصة علم البيان التي حولها يدندن وإليها تستند البلاغة وعنها يعنعن... ويسمى أيضاً شجاعة العربية وإنما تسمى بذلك لأن الشجاعة هي الإقدام وذاك أن الرجل الشجاع يركب ما لا يستطيعه غيره ويتورد ما لا يتورده سواه وكذلك الالتفات في الكلام فإن اللغة العربية تختص به دون غيرها من اللغات[5].

---

(١) التحرير والتنوير ٦١/١.
(٢) التحرير والتنوير ٦٥/١.
(٣) هو: أبو الفتح نصر الله بن محمد بن محمد بن عبد الكريم المعروف بابن الأثير الجزري الملقب ضياء الدين المتوفى سنة ٦٣٧هـ.(وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان٣٨٩/٥).
(٤) يقصد بقوله وما يليه "توكيد الضميرين" ١٧/٢.
(٥) المثل السائر٣/٢.

وهذا الأسلوب – أعني أسلوب الالتفات – أسلوب متميز من أساليب القرآن الكريم، كان له قصب الاهتمام عند المفسرين وعلماء البلاغة سواء في مجال التنظير أم في مجال التطبيق، وقد اهتم بعض المفسرين اهتماماً خاصاً في تجليته من خلال التفسير كما فعل الزمخشري في تفسيره الكشاف والقاضي أبو السعود في تفسيره إرشاد العقل السليم، والألوسي في تفسيره روح المعاني والطاهر بن عاشور في تفسيره التحرير والتنوير وغيرهم.

ولقناعتي بأهمية هذا الموضوع ولما له من أهمية بالغة في إثبات إعجاز القرآن الكريم لأن هذه اللفتات البلاغية عز نظيرها في أساليب البلغاء والشعراء قديماً وحديثاً، رأيت أن أكتب فيه عسى الله أن ينفعني به إنه ولي ذلك والقادر عليه، وقد قسمت البحث إلى العناصر التالية:

١ – المقدمة وبينت فيها أهمية الموضوع.

٢ – الالتفات لغة واصطلاحاً.

٣ – شرط الالتفات.

٤ – فوائد الالتفات.

٥ – أقسام الالتفات.

٦ – أمثلة من القرآن الكريم على أقسام الالتفات.

٧ – النتائج.

٨ – الفهارس.

المطلب الأول:

تعريف الالتفات لغة واصطلاحاً:

تعريفه لغة:

قال ابن فارس[1]: اللام والفاء والتاء كلمة واحدة تدل على اللـــيّ وصـــرف الشيء عن وجهته المستقيمة، منه لفت الشيء لويته، ولفت فلانـــاً عـــن رأيـــه صرفته، وامرأة لفوت لها زوج ولها ولد من غيره فهي تلفت إلى ولدها[2].

وقال ابن منظور[3]: لفت وجهه عن القوم صرفه، والتفت التفاتاً، والتَلَفُّـــتُ أكثرُ منه وتَلَفَّت إلى الشيء والتفت إليه: صرف وجهه إليه[4].

وقال الفـــراء فـــي قولـــه تعـــالى:﴿أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ (يونس٧٨) اللفت: الصرف، يقال: ما لفتك عن فلان؟ أي ما صرفك عنه"[5].

---

(١) هو: أحمد بن فارس بن زكريا اللغوي، له تصانيف كثيرة منها كتاب مقاييس اللغة وهـــو كتاب جليل لم يصنف مثله،المتوفى سنة ٣٩٥هـــ. (طبقات المفسرين للداودي٩٢/١).

(٢) مقاييس اللغة ٢٥٨/٥.

(٣) هو: الإمام اللغوي الحجة جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم بن علي الأنصاري، خدم في ديوان الإنشاء بمصر،ثم ولي القضاء في طرابلس، وعاد إلى مصر فتوفي فيها ســـنة إحدى عشر وسبعمائة هجرية. (الأعلام للزركلي١٠٨/٧).

(٤) لسان العرب٨٤/٢.

(٥) معاني القرآن ٤٧٥/١

وقال الزبيدي[١]:تلفت الشيء والتفت إليه: صرف وجهه إليه[٢]واللفوت: التي لا تثبت عينها في موضع واحد، وإنما همها أن تغفل أنت عنها فتغمز غيرك[٣].

وسمي الالتفات بذلك لأن حقيقته "مأخوذة من التفات الإنسان عن يمينه وشماله فهو يقبل بوجهه تارة كذا وتارة كذا وكذلك يكون هذا النوع من الكلام خاصة لأنه يتنقل فيه من صيغة إلى صيغة كالانتقال من خطاب حاضر إلى غائب أو من خطاب غائب إلى حاضر ..."[٤].

ويسمى أيضاً (شجاعة العربية) وإنما سمي بذلك لأن الشجاعة هي الإقدام وذاك أن الرجل الشجاع يركب مالا يستطيعه غيره ... وكذلك هذا الالتفات في الكلام فإن اللغة العربية تختص به دون غيرها من اللغات[٥].

تعريف الالتفات اصطلاحاً:

قال ابن القيم الجوزية[٦]: هو نقل الكلام من حالة إلى أخرى[٧].

---

(١) هو: محمد بن محمد بن محمد بن عبد الرزاق الحسيني الزبيدي أبو الفيض، علامة باللغة والحديث والرجال والأنساب، ومن كبار المصنفين والمتوفي سنة ١٢٠٥هـ. (الأعلام٧/٧٠).

(٢) تاج العروس ٧٨/٥ باب لفت.

(٣) المصدر السابق ٨١/٥.

(٤) المثل السائر٣/٢.

(٥) المصدر السابق٣/٢.

(٦) هو : أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب الزرعي، المتوفى سنة ٧٥١هـ.

(٧) الفوائد المشوق إلى علوم القرآن، ص١٤٤.

وقال الطوفي[1]: هو الرجوع عن أسلوب من أساليب الكلام إلى غيره[2].

وقال الزركشي[3]: هو نقل الكلام من أسلوب إلى أسلوب آخر تطرية واستدراراً للسامع وتجديداً لنشاطه وصيانة لخاطره من الملل والضجر بدوام الأسلوب الواحد على سمعه[4].

وقال السيوطي[5]: نقل الكلام من أسلوب إلى آخر أعني من التكلم أو الخطاب أو الغيبة إلى آخر منها بعد التعبير بالأول هذا هو المشهور[6].

قال الطاهر ابن عاشور[7]:وفي ضابط أسلوب الالتفات رأيان لأئمة علماء البلاغة: أحدهما رأي من عدا السكاكي[8] من أئمة البلاغة وهو: أن المتكلم بعد أن

---

(١) هو: سليمان بن عبد القوي بن عبد الكريم الطوفي الصرصري، المتوفى سنة٧١٦هـ، الفقيه الأصولي المتفنن وله مؤلفات كثيرة، منها الإكسير في علم التفسير. (طبقات المفسرين للداودي ٢٦٤/١).

(٢) الإكسير في علم التفسير، ص١٤٠.

(٣) هو: بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي، ألف تصانيف كثيرة في عدة فنون، وعالم في الحديث والتفسير،وتوفي سنة ٧٩٤هـ. (طبقات المفسرين للداودي٣٠٢/١).

(٤) البرهان ٣١٤/٣.

(٥) هو: عبد الرحمن بن أبي بكر بن سابق الخضيري السيوطي، صاحب المؤلفات الفائقة والناقعة والمتوفي سنة ٩١١هـ. (شذرات الذهب ٥١/٨).

(٦) الاتقان ٢٢٨/٢-٢٢٩.

(٧) هو: محمد الطاهر بن عاشور، رئيس المفتين المالكيين بتونس، وشيخ جامع الزيتونة المتوفى سنة ١٣٩٣هـ. (الأعلام١٧٤/٦).

(٨) السكاكي هو: يوسف بن أبي بكر بن محمد السكاكي الخوارزمي الحنفي مولده ووفاته بخوارزم توفي سنة ٦٢٦هـ. (شذرات الذهب١٢٢/٥)، (الأعلام١٢٢/٥).

يعبر عن ذات بأحد طرق ثلاثة من تكلم أو غيبه أو خطاب ينتقل في كلامه ذلك فيعبر عن تلك الذات بطريق آخر من تلك الثلاثة،وخالفهم السكاكي فجعل مسمى الالتفات أن يعبر عن ذات بطريق من طرق التكلم أو الخطاب أو الغيبة عادلاً عن أحدهما الذي هو الحقيق بالتعبير في ذلك الكلام إلى طريق آخر منها، ويظهر أثر الخلاف بين الجمهور والسكاكي في المحسن الذي يسمى بالتجريد[1] في علم البديع مثل قول علقمة بن عبدة[2] في طالع قصيدته:

طحابك قلب في الحسان طروب.

مخاطباً نفسه على طريقة التجريد، فهذا ليس بالتفات عند الجمهور، وهو معدود من الالتفات عند السكاكي، فتسميته الالتفات التفاتاً على رأي الجمهور

---

(١) التجريد: انتزاع أمر من آخر مطلقاً، ونكتته العامة التفنن في الأسلوب كالالتفات لتقاربهما، وأن كان مبني الالتفات على اتحاد المعنى، ومبني التجريد على التغاير بينهما بحسب الاعتياد، وقد يجتمعان وقد ينفرد الالتفات، وقد ينفرد التجريد، وفي التجريد فائدتان: طلب التوسع في الكلام، وتمكين المخاطب من إجراء الأوصاف المقصودة من مدح أو غيره على نفسه، إذ يكون مخاطباً بها غيره، فيكون أعذر له. (جواهر البلاغة، ص٢٩٨).

(٢) هو: علقمة بن عبدة – بفتح العين والباء– من بني تميم ويقال له "علقمة الفحل" شاعر جاهلي من الطبقة الأولى، كان معاصراً لامرئ القيس توفي سنة ٢٠ قبل الهجرة. (الأعلام٤/٢٤٧).

والبيت هو: طحا بك قلب في الحسان طروب بُعيْد الشباب عصر حان مشيب

وهو في ديوانه جـ١، ص١، وخزانة الأدب، جـ٤، ص٣٦٠، وجـ١١، ص٣٠٧، وطبقات فحول الشعراء، جـ١، ص١٣٩.

باعتبار أن عدول المتكلم عن الطريق الذي سلكه إلى طريق آخر يشبه حالة الناظر إلى شيء ثم يلتفت عنه، وأما تسميته التفاتاً على رأي السكاكي فتجري على اعتبار الغالب من صور الالتفات دون صورة التجريد، ولعل السكاكي التزم هذه التسمية لأنها تقررت من قبله فتابع هو الجمهور في هذا الاسم[1].

قلت: فالالتفات عند الجمهور حينئذ أخص منه عند السكاكي، فكل التفات عند الجمهور التفات عنده ولا عكس.

شرط الالتفات:

الأول: أن يكون الضمير في المنتقل إليه عائداً في نفس الأمر إلى المنتقل عنه وإلا يلزم عليه أن يكون في (أنت صديقي) التفات[2].

الثاني:أن يكون في جملتين - أي كلامين مستقلين - حتى يمتنع بين الشرط وجوابه[3].

ثم قال الزركشي: وفي هذا الشرط نظر - يعني الثاني - فقد وقع في القرآن مواضع الالتفات فيها وقع في كلام واحد وإن لم يكن بين جزئي الجملة كقوله تعالى:﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُوْلَـٰٓئِكَ يَئِسُواْ مِن رَّحْمَتِى ﴾ العنكبوت:٢٣.

---

(١) التحرير والتنوير لابن عاشور١٠٢/١، ١٠٣.

(٢) البرهان٣/٣٣١الاتقان ٢٣٢/٢.

(٣) البرهان٣/٣٣١.

وقوله: ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا ﴾ القصص: ٥٩.

وقوله: ﴿ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ ﴾ الأحزاب: ٥٠

بعد قوله:"إنا حللنا لك، والتقدير : إن وهبت امرأة نفسها للنبي إنا حللنا لك، وجملتا الشرط والجزاء كلام واحد[١].

فوائد الالتفات:

للالتفات فوائد عامة وخاصة، فمن العامة التفنن والانتقال من أسلوب إلى آخر لما في ذلك من تنشيط السامع[٢].

ومنها تطرية الكلام، وصيانة السمع عن الضجر والملال لما جبلت عليه النفوس من حب التنقلات والسآمة من الاستمرار على منوال واحد، وهذه فائدته العامة[٣].

وأما الفوائد الخاصة فتختلف محاله ومواقع الكلام فيه على ما يقصده المتكلم[٤].

قال السيوطي: ويختص كل موضع بنكت ولطائف باختلاف محله[٥].

---

(١) المصدر السابق٣/٣٣٢.
(٢) البرهان ٣/٣٢٥-٣٢٦.
(٣) الاتقان٢/٢٢٩.
(٤) البرهان ٣/٣٢٦.
(٥) الاتقان ٢/٢٢٩.

ومن هذه الفوائد الخاصة[1] ما يلي:

١ - قصد تعظيم شأن المخاطب، ومن هذا قوله تعالى:﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ (الإسراء،١١١)، فإن التأدب في الغيبة دون الخطاب أعظم.

وكذلك ما ذكره المفسرون في سورة الفاتحة من تفصيل وبيان أوجه التعظيم من خلال أسلوب الالتفات في الآيات.

٢ - التنبيه على ما حق الكلام أن يكون وارداً عليه كقوله تعالى:﴿وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (يس٢٢) أصل الكلام" وما لكم لا تعبدون الذي فطركم" ولكنه أبرز الكلام في معرض المناصحة لنفسه وهو يريد مناصحتهم ليتلطف بهم، ويريهم أنه لا يريد لهم إلا ما يريد لنفسه.

٣ - أن يكون الغرض به التتميم لمعنى مقصود للمتكلم فيأتي به محافظة على تتميم ما قصد إليه من المعنى المطلوب له كقوله"﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۝٤ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ۝٥ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٦﴾ (الدخان، ٤-٦).

أصل الكلام "إنا مرسلين رحمة منا" ولكنه وضع الظاهر موضع المضمر للإنذار بأن الربوبية تقتضي الرحمة للمربوبين للقدرة عليهم. أو لتخصيص النبي صلى الله عليه وسلم بالذكر أو الإشارة إلى أن الكتاب إنما هو إليه دون غيره ثم التفت بإعادة الضمير إلى الرب الموضوع موضع المضمر للمعنى المقصود من تتميم المعنى.

---

(١) البرهان ٣/٣٢٦-٣٣٠.

٤ – قصد المبالغة كقوله تعالى:﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَرَيۡنَ بِهِم ﴾ (يونس٢٢). كأنه يذكر لغيرهم حالهم ليتعجب منها ويستدعي منه الإنكار والتقبيح لها إشارة منه على سبيل المبالغة إلى أن ما يعتمدونه بعد الانجاء من البغي في الأرض بغير الحق ما ينكر ويقبح.

٥ – قصد الدلالة على الاختصاص كقوله:﴿ وَٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابٗا فَسُقۡنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٖ مَّيِّتٖ فَأَحۡيَيۡنَا ﴾ (فاطر٩).

فإنه لما كان سوق السحاب إلى البلد الميت وإحياء الأرض بعد موتها بالمطر دالاً على القدرة الباهرة التي لا يقدر عليها غيره،عدل عن لفظ الغيبة إلى التكلم لأنه أدخل فيه الاختصاص وأدل عليه، سقنا وأحيينا.

٦ – قصد الاهتمام كقوله تعالى:﴿ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٞ فَقَالَ لَهَا وَلِلۡأَرۡضِ ٱئۡتِيَا طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهٗا قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَاتٖ فِي يَوۡمَيۡنِ وَأَوۡحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمۡرَهَاۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفۡظٗاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ﴾ (فصلت١١-١٢).

فعدل عن الغيبة في "قضاهن" و"أوحى"، إلى التكلم في "وزينا السماء" للاهتمام بالإخبار عن نفسه، فإنه تعالى جعل الكواكب في سماء الدنيا للزينة والحفظ وذلك لأن طائفة اعتقدت في النجوم أنها ليست في سماء الدنيا وأنها ليست حفظاً ولا رجوماً فعدل إلى التكلم والإخبار عن ذلك لكونه مهماً من مهمات الاعتقاد ولتكذيب الفرقة المعتقدة بطلانه.

٧ – قصد التوبيخ، كقوله تعالى:﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴾ (مريم، ٨٨، ٨٩)

عدل عن الغيبة إلى الخطاب للدلالة على أن القائل مثل قولهم ينبغي أن يكون موبخاً ومنكراً عليه، ولما أراد توبيخهم على هذا أخبر عنه بالحضور فقال:"لقد جئتم" لأن توبيخ الحاضر أبلغ في الإهانة له.

أقسام الالتفات:

ذهب الزركشي إلى تقسيم الالتفات إلى سبعة أقسام وهي[١]:

١ – الالتفات من التكلم إلى الخطاب.

٢ – الالتفات من التكلم إلى الغيبة.

٣ – الالتفات من الخطاب إلى التكلم.

٤ – الالتفات من الخطاب إلى الغيبة.

٥ – الالتفات من الغيبة إلى التكلم.

٦ – الالتفات من الغيبة إلى الخطاب.

٧ – بناء الفعل للمفعول بعد خطاب فاعله أو تكلمه.

وكذلك ذكر هذه الأقسام السيوطي في الإتقان[٢]. ومما يقرب من الالتفات

---

(١) البرهان ٣/٣١٥-٣٢٥.

(٢) ٢/٢٢٩-٢٣١، وأما السابع فذكره في ص٢٣٢، حيث قال:" ذكر التنوخي في (الأقصى القريب) وابن الأثير وغيرهما نوعاً غريباً من الالتفات وهو بناء الفعل للمفعول بعد خطاب فاعله أو تكلمه.

الانتقال من خطاب الواحد والاثنين والجمع إلى خطاب آخر وهو ستة أقسام[1]:

أحدها: الانتقال من خطاب الواحد لخطاب الاثنين.

الثاني: من خطاب الواحد إلى خطاب الجمع.

الثالث: من الاثنين إلى الواحد.

الرابع: من الاثنين إلى الجمع.

الخامس: من الجمع إلى الواحد.

السادس: من الجمع إلى التثنية.

ومما يقرب من الالتفات أيضاً[2] الانتقال من الماضي أو المضارع أو الأمر إلى آخر، من الماضي إلى الأمر، ومن المستقبل إلى الأمر، ومن الماضي إلى المستقبل، ومن المستقبل إلى الماضي.

أمثلة من القرآن الكريم على أقسام الالتفات:

وفيما يلي أذكر أمثلة من القرآن الكريم مبيناً آراء المفسرين وتوجيهاتهم في ذلك.

١ - الالتفات من التكلم إلى الخطاب:

كقوله تعالى: ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾﴾ (يس٢٢)

---

(١) البرهان ٣/٣٣٤-٣٣٥، والإتقان ٢/٢٣٣.

(٢) انظر البرهان ٣/٣٣٦-٣٣٧، والإتقان ٢/٢٣٣، ٢٣٤.

قال الشوكاني[1]: ثم أبرز الكلام في معرض النصيحة لنفسه وهو يريد مناصحة قومه فقال" وما لي لا أعبد الذي فطرني" أي أيُّ مانع من جانبي يمنعني من عبادة الذي خلقني ثم رجع إلى خطابهم لبيان أنه ما أراد نفسه بل أرادهم بكلامه فقال: (وإليه ترجعون) ولم يقل وإليه أرجع وفيه مبالغة في التهديد[2].

فيفهم من كلام الشوكاني أن في الآية التفاتاً من التكلم إلى الخطاب لأن الأصل في التعبير أن يكون "وإليه ارجع" وفائدة الالتفات هنا المبالغة في التهديد.

وقال الألوسي[3]: قوله:"وإليه ترجعون" مبالغة في تهديدهم بتخويفهم بالرجوع إلى شديد العقاب مواجهة وصريحاً ولو قال" وإليه أرجع" كان فيه تهديد بطريق التعريض. وعد التعبير "بإليه ترجعون" بعد التعبير "بما لي لا أعبد" من باب الالتفات كمكان التعريض بالمخاطبين في "مالي لا أعبد" الخ[4].

وكقوله تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ ﴾ (يونس ١٠٤)

ففي الآية التفات في قوله"يتوفاكم" بصيغة الخطاب وذلك بعد صيغة التكلم في قوله" ولكن أعبد" وكان المقتضى الاستمرار ليكون المقطع (ولكن أعبد الله الذي

---

(١) هو: محمد بن علي بن محمد الشوكاني، فقيه مجتهد من كبار علماء اليمن، له مؤلفات عدة توفي سنة ١٢٥٠هـ. (الأعلام للزركلي٦/٢٩٨).

(٢) فتح القدير٤/٣٦٥.

(٣) هو: شهاب الدين أبو الثناء محمود بن عبد الله الحسيني مفسر، محدث، أديب، من المجددين، توفي سنة ١٢٧٠هـ (الأعلام٧/١٧٦).

(٤) روح المعاني ٢٢/٢٢٦.

يتوفاني) بدل قوله تعالى "يتوفاكم" فما الحكمة من هذا الالتفات؟

قال الرازي[1]: "فإن قيل : ما الحكمة في ذكر المعبود الحق في هذا المقام بهذه الصيغة وهي قوله:" الذي يتوفاكم" قلنا: فيه وجوه: الأول: يحتمل أن يكون المراد أني أعبد الله الذي خلقكم أولاً ثم يتوفاكم ثانياً ثم يعيدكم ثالثاً وهذه المراتب الثلاثة قد قررناها في القرآن مراراً وأطواراً، فههنا اكتفى بذكر التوفي منها لكونه منبهاً على البواقي.

الثاني: أن الموت أشد الأشياء مهابة فخص[2] هذا الوصف بالذكر في هذا المقام ليكون أقوى في الزجر والردع.

الثالث: أنهم لما استعجلوا نزول العذاب قال تعالى:﴿فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِهِمْ ۚ قُلْ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا ﴾ (يونس١٠٢-١٠٣)

فهذه الآية تدل على أنه تعالى يهلك أولئك الكفار ويبقي المؤمنين ويقوي دولتهم، فلما كان قريب العهد بذكر هذا الكلام لا جرم قال ههنا"ولكن اعبد الله الذي يتوفاكم" وهو إشارة إلى ما قرره وبينه في تلك الآية كأنه يقول أعبد ذلك

---

(١) هو: الإمام العلامة فخر الدين أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسين الرازي، المفسر، المتكلم، إمام وقته في العلوم العقلية، صاحب المصنفات المشهورة، توفي سنة ست وستمائة هجرية.
(طبقات المفسرين١/١١٥).

(٢) في المطبوع "فنخص" والصواب ما أثبته.

الذي وعدني بإهلاكهم وإبقائي"[١].

وفائدة هذا الالتفات إلى الخطاب لما فيه من التهديد والوعيد للمشركين قال أبو السعود[٢]: " وفي تخصيص التوفي بالذكر متعلقاً بهم ما لا يخفى من التهديد"[٣].

وقال الشوكاني:"وخص صفة التوفي من بين الصفات لما في ذلك من التهديد لهم أي أعبد الله الذي يتوفاكم فيفعل بكم ما يفعل من العذاب الشديد"[٤].

٢ - الالتفات من التكلم إلى الغيبة:

كقوله تعالى:﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾

سورة الأعراف، ١٥٨.

قال ابن عاشور:وفي قوله:" ورسوله النبي الأمي" التفات من التكلم إلى الغيبة لقصد إعلان تحقق الصفة الموعود بها في التوراة في شخص محمد صلى الله عليه وسلم[٥].

---

(١) التفسير الكبير ١٣٨/١٧.

(٢) هو : الإمام العلامة محمد بن محمد بن العمادي الحنفي تنقل في المدارس، ثم قلد القضاء مدة، توفي سنة ٩٨٢هـ. (شذرات الذهب ٣٩٨/٨).

(٣) إرشاد العقل السليم(١٧٩/٤.

(٤) فتح القدير ٤٧٧/٢.

(٥) التحرير والتنوير ١٦٥٧/١.

وكقولـــه تعـــالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ (فاطر ٢٩-٣٠)

قال ابن عاشور: ووقع الالتفات من التكلم في قولـــه:"مما رزقنـــاهم" إلـــى الغيبة ــ في قوله"ليوفهم" ـــ رجوعاً إلى سياق الغيبة من قوله"يتلون كتاب الله" أي ليوفي الله الذين يتلون كتابه[1].

وكقولـــه تعـــالى: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ (البقرة،الآية٢٣).

فالالتفات في هذه الآية في تغير الأسلوب من صيغة التكلم فـــي قولـــه"مما نزلنا" وكذا في "عبدنا" إلى صيغة الغيبة في قوله تعالى:" من دون الله" فالآية بدأت بضمير المتكلم ليوثق نسبة هذا المنزل ويوضح مصـــدره الحقيقـــي رغـــم أنـــف المعارضين ثم تأتي كلمة "عبدنا" لتبين صلة النبي صلى الله عليـــه وســـلم بـــالله وتؤكد عبوديته وخضوعه التام لربه ثم تلتفت الآية إلى أسلوب الغيبة فـــي لفـــظ الجلالة – الله – لتزيد الأمر شرفاً وتعلي قدره وتوضح أمراً دقيقاً وهو أن صاحب هذا الضمير السابق هو الله ذو الألوهية والعبودية على الخلق أجمعين، وقد ذكـــر أبو السعود في تفسيره ثلاث فوائد للالتفات في هذه الآية، الأولى: لإدخال الروعة وتربية المهابة، والثانية: الإيذان بكمال سخافة عقولهم حيث أثروا على عبادة من له الألوهية الجامعة لجميع صفات الكمال عبادة مالا أحقر منه. والثالثـــة: تربيـــة

---

(١) المصدر السابق ٣٤٨٧/١.

المهابة وترسيخ ذلك المعنى فإن ما يقوم بهذا الأمر في ذلك المقام الحظير حقه أن يستعان به في كل مرام، وفي أمرهم على الوجهين بأن يستظهروا في معارضة القرآن الذي أخرس كل منطق بالجماد من التهكم بهم ما لا يوصف[1].

٣ - الالتفات من الخطاب إلى التكلم:

كقوله تعالى:﴿ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴾

(هود، ٩٠)

الالتفات في قوله تعالى :"إن ربي" بصيغة التعلم وذلك بعد مخاطبتهم بقوله: "واستغفروا ربكم ثم توبوا" وكان حق الظاهر أن يقول: "إن ربكم" تمشياً مع ما سبقه، حتى يكون على صيغة واحدة وهي صيغة الخطاب، ولكنه التفت من الخطاب إلى التكلم، ولما كان الاستفسار والتوبة تخصهم وحدهم أضاف كلمة رب إلى ضمير خطابهم ليهز نفوسهم ويقربهم من الله زلفى، وعندما أراد أن يخبرهم – أي شعيب – بما يعهده في ربه أسند هذه الكلمة إلى نفسه فقال:" إن ربي" لتكون دليلاً على اليقين بها في نفسه المؤمنة وشاهداً على صدق كلامه، فهو عليه السلام التفت عن الخطاب إلى التكلم ليوضح ما في نفسه ويفصح عما بها[2].

وكقوله تعالى:﴿ قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴾

(يونس، ٢١)

---

(١) إرشاد العقل السليم١/٧٩-٨٠ بتصرف.

(٢) انظر المعاني في ضوء أساليب القرآن. د/ عبد الفتاح لاشين، ص٢٦١.

ففي هذه الآية التفات إلى التكلم في قوله:" رسلنا" وذلك بعد أسلوب الخطاب في قوله:" قل الله أسرع مكراً" فالله عز وجل خاطب نبيه بقوله:"قل الله "أي قل لهم يا محمد وعظهم بأن الله أسرع مكراً أي منكم فجعل مكر الله بهم أسرع من مكرهم بآيات الله.

قال الألوسي:" إن رسلنا" التفاتاً إذ لو أجري على قوله سبحانه:"قل الله" لقيل إن رسله فلا إشكال فيه من حيث أنه لا وجه لأمر الرسول صلى الله عليه وسلم بأن يقول لهم إن رسلنا إذ الضمير لله تعالى لا له عليه الصلاة والسلام[1].

٤ - الالتفات من الخطاب إلى الغيبة:

كقوله تعالى:﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ (البقرة٨٧-٨٨)

الالتفات في قوله:"وقالوا" بصيغة الغيبة عنهم وذلك بعد مخاطبتهم فيما سبق.

قال الطاهر بن عاشور : "وقالوا قلوبنا غلف إما عطف على قوله"استكبرتم" أو على "كذبتم" فيكون على الوجه الثاني تفسيراً للاستكبار أي يكون على تقدير عطفه على كذبتم من جملة تفصيل الاستكبار بأن أشير إلى أن استكبارهم أنواع تكذيب وتقتيل وإعراض، وعلى الوجهين ففيه التفات من الخطاب إلى الغيبة،

---

(١) روح المعاني ٩٥/١١.

وإبعاد لهم عن مقام الحضور فهو من الالتفات الذي نكتته أن ما أجري على المخاطب من صفات النقص والفظاعة قد أوجب إبعاده عن البال وإعراض البال عنه، فيشار إلى هذا الإبعاد بخطابه بخطاب البعد فهو كناية.

وقد حسن الالتفات لأنه مؤذن بانتقال الكلام إلى سوء مقابلتهم للدعوة المحمدية وهو غرض جديد، فإنه لما تحدث عنهم بما هو من شؤونهم من أنبيائهم وجه الخطاب إليهم، ولما أريد الحديث عنهم في إعراضهم عن النبي صلى الله عليه وسلم صار الخطاب جارياً مع المؤمنين، وأجرى على اليهود ضمير الغيبة[1]،وأما أبو السعود فقد ذكر الفائدة من هذا الالتفات إلى الغيبة بقوله:"إشعاراً بإبعادهم عن رتبة الخطاب"[2].

وقال الألوسي:" فيه التفات من الخطاب إلى الغيبة إعراضاً عن مخاطبتهم وإبعاداً لهم عن عز الحضور"[3].

وكقوله تعالى:﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلۡأَرۡضِۖ يَعۡلَمُ سِرَّكُمۡ وَجَهۡرَكُمۡ وَيَعۡلَمُ مَا تَكۡسِبُونَ ٣ وَمَا تَأۡتِيهِم مِّنۡ ءَايَةٖ مِّنۡ ءَايَٰتِ رَبِّهِمۡ إِلَّا كَانُواْ عَنۡهَا مُعۡرِضِينَ ٤ ﴾

(الأنعام٣-٤).

ففي الآية التفات من الخطاب في قوله:"يعلم سركم وجهركم ويعلم ما تكسبون" إلى الغيبة في قوله "وما تأتيهم" قال الطاهر بن عاشور:" ففي العدول

---

(١) التحرير والتنوير ٣٤٤/١.

(٢) إرشاد العقل السليم ١٢٧/١.

(٣) روح المعاني ٣١٨/١.

عن الخطاب إلى الغيبة بالنسبة إليهم التفات أوجبه تشهيرهم بهذا الحال الذميم تنصيصاً على ذلك وإعراضاً عن خطابهم وتمحيصاً للخطاب للمؤمنين وهو من أحسن الالتفات لأن الالتفات يحسنه أن يكون له مقتض زائد على نقل الكلام من أسلوب إلى أسلوب المراد منه تجديد نشاط السامع"[1].

وذكر أبو السعود الفائدة من هذا الالتفات بقوله:"والالتفات للإشعار بأن ذكر قبائحهم قد اقتضى أن يضرب عنهم الخطاب صفحاً وتعدد جناياتهم لغيرهم ذماً لهم وتقبيحاً"[2].

٥ - الالتفات من الغيبة إلى التكلم:

كقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾﴾ (طه،٥٣).

ففي هذه الآية التفات إلى التكلم في قوله"فأخرجنا" وذلك بعد أسلوب الغيبة في قوله:"وأنزل" وفائدة الالتفات التنبيه على ظهور ما فيه من الدلالة على كمال القدرة والحكمة والإيذان بأنه لا يتأتى إلا من قادر مطاع عظيم الشأن تنقاد لأمره وتذعن لمشيئته الأشياء المختلفة[3].

وقال الشنقيطي[4]: وهذا الالتفات من الغيبة إلى التكلم بصيغة التعظيم... يدل

---

(١) التحرير والتنوير ١/١٢٤٦.

(٢) إرشاد العقل السليم ٣/١٠٩، وانظر روح المعاني للألوسي٧/٩١.

(٣) إرشاد العقل السليم لأبي السعود ٦/٢١.

(٤) هو: العلامة محمد الأمين بن محمد المختار الجكني الشنقيطي بحر العلوم المفسر، درس في المسجد النبوي والجامعة الإسلامية، توفي بمكة ودفن بها سنة ١٣٩٣هـ.(مقدمة أضواء البيان١/٩) .

على تعظيم شأنه إنبات النبات لأنه لو لم ينزل الماء ولم ينبت شيئاً لهلك النـــاس جوعاً وعطشاً فهو يدل على عظمته جل وعلا وشدة احتياج الخلق إليـــه ولـــزوم طاعتهم له جل وعلا"[1].

وكقوله تعالى:﴿ وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ (النحل،٥)

فالآية فيها التفات من الغيبة إلى التكلم، والفائدة من هذا الالتفـــات تربيـــة المهابة، وإلقاء الرهبة في القلوب، والمبالغة في التخويف والترهيب فإن تخويف الحاضر مواجهة أبلغ من تخويف الغائب، سيما بعد وصفه بالوحـــدة والألوهيـــة المتضمنة للعظمة والقدرة التامة على الانتقام[2].

وقال البيضاوي[3]:"نقل من الغيبة إلى التكلم مبالغة في الترهيب، وتصـــريحاً بالمقصود فكأنه قال:فأنا ذلك الإله الواحد فإياي فارهبون لا غير[4].

وكقوله تعالى:﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ ﴾ (الأنعام٩٩).

---

(١) أضواء البيان ٢٢/٤.

(٢) انظر: إرشاد العقل السليم ١١٩/٥، وروح المعاني ١٦٣/٤.

(٣) هو: قاضي القضاة ناصر الدين، عبد الله بن عمر بن محمد أبو الخير، كان إماماً علامة، عارفاً بالفقه والتفسير، توفي سنة٦٨٥هـــ. (السير للذهبي٢٤٤٦/٢).

(٤) تفسير البيضاوي ٣٠٤/٣، وانظر الكشاف ٥٧٠/٢.

والالتفات في هذه الآية في قوله تعالى "فأخرجنا" بضمير المتكلم، وذلك بعد صيغة الغيبة الموجودة في أول الآية في قوله تعالى:"وهو الذي أنزل من السماء ماءً" وكان مقتضى الظاهر أن يقول"أخرج " باستمرار صيغة الغيبة.

والفائدة من هذا الالتفات كما قال أبو السعود:"التفت إلى التكلم إظهاراً لكمال العناية بشأن ما أنزل الماء لأجله أي فأخرجنا بعظمتنا بذلك الماء مع وحدته"نبات كل شيء" من الأشياء التي من شأنها النمو عن أصناف النجم والشجر وأنواعهما المختلفة في الكم والكيف والخواص والآثار اختلافاً متفاوتاً في مراتب الزيادة والنقصان حسبما يفصح عنه قوله تعالى:"ويسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل"[1].

وذكر الألوسي الفائدة التي ذكرها أبو السعود ثم قال:" وذكر بعضهم نكتة خاصة لهذا الالتفات غير ما ذكر وهي أنه سبحانه لما ذكر فيما مضى ما ينبهك على أنه الخالق اقتضى ذلك التوجَّه إليه حتى يخاطب واختيار ضمير العظمة دون ضمير المتكلم وحده لإظهار كمال العناية أي فأخرجنا بعظمتنا بذلك الماء مع وحدته"نبات كل شيء" أي كل صنف من أصناف النبات المختلفة"[2]. قلت: وهذه النكتة الخاصة التي ذكرها الألوسي ذكرها من قبله أبو السعود، وتفهم من كلامه السابق.

---

(١) إرشاد العقل السليم ١٦٦/٣. وانظر روح المعاني ٢٣٨/٧، وفتح القدير ١٤٤/٢.

(٢) روح المعاني ٢٣٨/٧.

٦ - الالتفات من الغيبة إلى الخطاب:

وقد تجلى هذا الأسلوب في أول سورة من القرآن وهي سورة الفاتحة في قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾، فهذه الآيات فيها أسلوب الغيبة ثم التفت عنه بقوله تعالى:﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ إلى أسلوب الخطاب .

قال ابن عاشور: والانتقال من أسلوب الحديث بطريق الغائب المبتدأ من قوله تعالى "الحمد لله" إلى قوله"مالك يوم الدين" إلى أسلوب طريق الخطاب ابتداء من قوله: "إياك نعبد" إلى آخر السورة، فن بديع من فنون نظم الكلام البديع عند العرب وهو المسمى في علم الأدب العربي والبلاغة التفاتاً"[١].

وفي الآية التفات بديع فإن الحامد لما حمد الله تعالى ووصفه بعظيم الصفات بلغت به الفكرة منتهاها فتخيل نفسه في حضرة الربوبية فخاطب ربه بالإقبال...

ومما يزيد الالتفات وقعاً في الآية أنه تخلص من الثناء إلى الدعاء ولا شك أن الدعاء يقتضي الخطاب فكان قوله:" إياك نعبد" تخلصاً يجيء بعده"اهدنا الصراط المستقيم"[٢].

وذكر الطوفي أن فائدة خطاب الغيبة في الآية الدلالة على الصدق

---

(١) التحرير والتنوير ١/١٠٢.

(٢) التحرير التنوير١/١٠٣.

والإخلاص، وأما الانتقال إلى الخطاب فإنه دليل على الخضوع والضراعة،وشدة الرغبة كما يقول الشخص في خطاب الملك (أنا شاكر للملك المعظم الجواد، بك أيها الملك المتصف بهذه الصفات استعين على أموري، وإليك ألجأ).

وكذلك فإن أسلوب الخطاب أخص من أسلوب الغيبة، فاستعمل الأسلوب الأخص في ذكر الفعل الأخص[1].

أما الألوسي فقد أطال في بيان الأسرار والمعاني التي يدل عليها الالتفات في سورة الفاتحة حيث قال:" سر الالتفات من الغيبة إلى الخطاب وقد ازدحمت فيه أذهان العلماء بعد بيان نكتته العامة وهي التفنن في الكلام والعدول من أسلوب إلى أخر تطرية له وتنشيطاً للسامع، فقيل: لما ذكر الحقيق بالحمد ووصف بصفات عظام تميز بها عن سائر الذوات، وتعلق العلم بمعلوم معين خوطب بذلك ليكون أدل على الاختصاص والترقي من البرهان إلى العيان والانتقال من الغيبة إلى الشهود وكأن المعلوم صار عياناً والمعقول مشاهداً والغيب حضوراً"[2]. ثم أطال رحمه الله في بيان تلك الأسرار والمعاني التي يدل عليها الالتفات في هذه السورة.

وأما الزمخشري[3]: فقال: فإن قلت لم عدل عن لفظ الغيبة إلى لفظ الخطاب؟

---

(١) الاكسير في علم التفسير، ص١٤١.

(٢) روح المعاني ٨٩/١.

(٣) هو: العلامة أبو القاسم محمود بن عمر بن محمد الزمخشري الخوارزمي، كان رأساً في البلاغة والعربية، وكان يظهر مذهب الاعتزال، ويصرح بذلك في تفسيره، توفي سنة ٥٣٨هـ. (السير ٣٨٠٠/٣).

قلت: هذا يسمى بالالتفات في علم البيان ... وذلك على عادة افتنانهم في الكلام وتصرفهم فيه، ولأن الكلام إذا نقل من أسلوب إل أسلوب كان ذلك أحسن تطرية لنشاط السامع وإيقاظاً للإصغاء إليه من إجرائه على أسلوب واحد، وقد تختص مواقعه بفوائد، ومما اختص به هذا الموضع أنه لما ذكر الحقيق بالحمد، وأجرى عليه تلك الصفات العظام تعلق العلم بمعلوم عظيم الشأن حقيق بالثناء وغاية الخضوع والاستعانة في المهمات فخوطب ذلك المعلوم المتميز بتلك الصفات فقيل:"إياك" يا من هذه صفاته، نخص بالعبادة والاستعانة لا نعبد غيرك، ولا نستعينه ليكون الخطاب أدل على أن العبادة له لذلك التميز الذي لا تحق العبادة إلا به[1].

وقد فصل في ذلك الإمام أبو السعود وبين أن التنقل من أسلوب إلى أسلوب أدخل في استجلاب النفوس واستمالة القلوب[2].

وكقوله تعالى:﴿ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗا ٨٨ لَّقَدۡ جِئۡتُمۡ شَيۡـًٔا إِدّٗا ٨٩ ﴾ (مريم٨٨ ـ٨٩)

ففي هذه الآية التفات من الغيبة في قوله"وقالوا اتخذ .." الخ إلى الخطاب في قوله"لقد جئتم" والنكتة والفائدة من هذا الالتفات لقصد إبلاغهم التوبيخ على وجه شديد الصراحة لا يلتبس فيه المراد[3].

---

(١) الكشاف ١/٥٦-٥٧.

(٢) إرشاد العقل السليم١/١٦.

(٣) التحرير والتنوير ١/٢٦٢٣.

وقال أبو السعود "لقد جئتم شيئاً إدا" رد لمقالتهم الباطلة وتهويل لأمرها بطريق الالتفات المنبئ عن كمال السخط وشدة الغضب المفصح عن غاية التشنيع والتقبيح، وتسجيل عليهم بنهاية الوقاحة والجهل والجرأة"[1].

وكقوله تعالى:﴿ وَأَذَانٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ ۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣﴾﴾ (التوبة٣).

الالتفات في هذه الآية في قوله تعالى" فإن تبتم فهو خير لكم" بصيغة الخطاب، وذلك بعد ورود ذكرهم بطريق الغيبة في أول الآية الكريمة عند قوله تعالى:"وأذان من الله ورسوله إلى الناس" وكذلك في قوله:" إن الله برئ من المشركين"وكان مقتضى السياق استمرار طبيعة الغيبة فتكون – فإن تابوا فهو خير لهم – قال أبو السعود: التفات من الغيبة إلى الخطاب لزيادة التهديد والتشديد[2].

٧ - بناء الفعل للمفعول بعد خطاب فاعله أو تكلمه:

قال الزركشي: فيكون التفاتاً عنه كقوله تعالى:"غير المغضوب عليهم" بعد "أنعمت" فإن المعنى غير الذين غضبت عليهم، ذكره التنوخي في الأقصى القريب والخفاجي وابن الأثير وغيرهم"[3].

---

(١) إرشاد العقل السليم ٢٨٢/٥، وانظر روح المعاني ١٣٩/١٦.

(٢) إرشاد العقل السليم٧٢/٤، وانظر فتح القدير ٣٣٤/٢، وروح المعاني ٤٨/١٠.

(٣) البرهان في علوم القرآن٣٢٥/٣، وانظر الإتقان ٢٣٢/٢.

قال الألوسي: وإنما أسند النعمة إليه تعالى تقرباً والمقصود طلب الهداية إلى صراط من ثبت إنعام الله تعالى عليه وتحقق ولذلك أتى بالفعل ماضياً وانحرف عن ذلك عند ذكر الغضب إلى الغيبة تأدباً ولأن من طلب منه الهداية، ونسب الأنعام إليه لا يناسب نسبة الغضب إليه لأنه مقام تلطف وترفق وتذلل لطلب الإحسان فلا يناسب مواجهته بوصف الانتقام، وقد عد ابن الأثير في كنز البلاغة والتنوخي في الأقصى القريب بناء الفعل للمفعول بعد خطاب فاعله نوعاً غريباً من الالتفات، فإن كان الالتفات كما في استعمال الأدباء والمتقدمين بمعنى الافتنان فلا غبار عليه، وإن كان بالمعنى المتعارف فلك أن تقول على رأى السكاكي الذي لا يشترط تعدد التعبير بل مخالفة مقتضى الظاهر، أن المخاطب إذا ترك خطابه وبنى ما أسند إليه المفعول والمحذوف كالغائب فلا مانع أن يسمى التفاتاً، فكما يجرى في الانتقال من مقدر إلى محقق يجري في عكسه وهو معنى بديع كما قاله الشهاب.[1].ا.هـ

٨ - الالتفات من خطاب الواحد إلى خطاب الاثنين:

كقوله تعالى: ﴿ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾ ﴾ (يونس، ٧٨)

ففي هذه الآية التفات من خطاب الواحد في قوله"أجئتنا لتلفتنا" إلى خطاب التثنية في قوله "وتكون لكما "و "وما نحن لكما".

---

(١) روح المعاني، جـ١، ص١٣١.

قال أبو السعود :"وتثنية الضمير في هذين الموضعين بعد إفراده .. باعتبار شمول الكبرياء لهما عليهما السلام واستلزام التصديق لأحدهما التصديق للأخر وأما اللفت والمجيء له فحيث كانا من خصائص صاحب الشريعة أسند إلى موسى عليه السلام خاصة[1].

وقال الألوسي: "والمراد بضمير المخاطبين موسى وهارون عليهما السلام، وإنما لم يفردوا موسى عليه السلام بالخطاب هنا كما أفردوه به فيما تقدم لأنه المشافه لهم بالتوبيخ والإنكار تعظيماً لأمر ما هو أحد سببي الأعراض معنى ومبالغة في إغاظة موسى عليه السلام وإقناطه عن الإيمان بما جاء به"[2].

وقال ابن عاشور:" وإنما واجهوا موسى بالخطاب لأنه الذي باشر الدعوة وأظهر المعجزة ثم أشركاه مع أخيه هارون في سوء ظنهم بهما في الغاية من عملهما"[3].

٩ - الالتفات من خطاب الواحد إلى خطاب الجمع:

كقوله تعالى:﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ (الطلاق،١).

ففي الآية التفات من خطاب الواحد" يا أيها النبي" إلى خطاب الجمع في قوله "طلقتم".

قال ابن عاشور:" توجيه الخطاب إلى النبي صلى الله عليه وسلم أسلوب من أساليب آيات التشريع المهتم به فلا يقتضي ذلك تخصيص ما يذكر بعده النبي

---

(١) إرشاد العقل السليم ١٦٩/٤.

(٢) روح المعاني ١٦٥/١١-١٦٦.

(٣) التحرير والتنوير ٢٠٥٢/١.

صلى الله عليه وسلم مثل " يا أيها النبي حرض المؤمنين على القتال" لأن النبـــي صلى الله عليه وسلم الذي يتولى تنفيذ الشريعة في أمته وتبيين أحوالها،فإن كان التشريع الوارد يشمله ويشمل الأمة جاء الخطاب مشتملاً على ما يفيد ذلك مثـــل صيغة الجمع في قوله:"إذا طلقتم النساء" وتوجيه الخطاب إليه صـــلى الله عليـــه وسلم لأنه المبلغ للناس وإمام أمته وقدوتهم والمنفذ لأحكام الله فيهم فيما بيـــنهم من المعاملات"[1].

وأما أبو السعود فذكر نكتة أخرى فقال:" وتخصيص النداء به عليه الصـــلاة والسلام مع عموم الخطاب لأمته أيضاً لتشريفه وإظهار جلالة منصبه، وتحقيـــق أنه المخاطب حقيقة ودخولهم في الخطاب بطريق استتباعه عليه الصلاة والسلام إياهم وتغليبه عليهم[2].

١٠- الالتفات من الاثنين إلى الواحد :

كقوله تعالى:﴿ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ ﴾ (طه٤٩)

ففي هذه الآية التفات من خطاب الاثنين في "ربكما" إلى خطاب الواحد فـــي قوله"يا موسى" وقد ذكر المفسرون الفائدة من هذا الالتفات، وأن تخصيص النداء بموسى عليه السلام مع توجيه الخطاب إليهما لما ظهر له من أنه الأصـــل فـــي

---

(١) التحرير والتنوير ١/٤٤٥٠.

(٢) إرشاد العقل السليم ٨/٢٦٠.

الرسالة وهارون وزيره وتابعه أو لأنه عرف – أي فرعون – أن لموسى رنَّة ولأخية فصاحة فأراد أن يفحمه"[1].

١١- الالتفات من الاثنين إلى الجمع:

كقوله تعالى: ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾ (يونس٨٧)

ففي هذه الآية عدل عن المثنى وهو"تبوءا لقومكما" إلى الجمع بقوله "واجعلوا" وذلك لأن موسى وهارون هما اللذان يقرران قواعد النبوة ويحكمان في الشريعة فخصهما بذلك ثم خاطب الجميع باتخاذ البيوت قبلة للعبادة إذ الجميع مأمورون بها ثم قال لموسى وحده "وبشر المؤمنين" لأنه الرسول الحقيقي الذي إليه البشارة والإنذار[2].

قال أبو السعود:" وإنما ثنى الضمير أولاً لأن التبوّء للقوم واتخاذ المعابد مما يتولاه رؤساء القوم بتشاور ثم جمع لأن جعل البيوت مساجد والصلاة فيها مما يفعله كل أحد، ثم وحد لأن بشارة الأمة وظيفة صاحب الشريعة[3].

وأما الزمخشري فقال:"فإن قلت: كيف نوع الخطاب فثنى أولاً ثم جمع ثم وحد آخراً؟ قلت: خوطب موسى وهارون عليهما السلام أن يتبوءا لقومهما بيوتاً

---

(١) انظر : إرشاد العقل السليم٦/٢٠، وتفسير البيضاوي٤/٥٣، والكشاف ٣/٦٨، وتفسير النفسي٣/٥٧، وروح المعاين ١٦/٢٠٠.

(٢) البرهان ٣/٣٣٥.

(٣) إرشاد العقل السليم ٤/١٧١ وانظر روح المعاني ١١/١٧٢.

ويختاراها للعبادة وذلك مما يفوض إلى الأنبياء ثم سيق الخطاب عاماً لهما ولقومها باتخاذ المساجد والصلاة فيها لأن ذلك واجب على الجمهور ثم خص موسى عليه السلام بالبشارة التي هي الغرض تعظيماً لها وللمبشر بها[1].

١٢- الالتفات من الجمع إلى الواحد:

الآية السابقة التي ذكرتها مثالاً على رقم(١١) تصلح مثالاً لهذا القسم، فإنه ثنى ثم جمع ثم وحد قال الزركشي: توسعاً في الكلام[2].

وكقوله تعالى: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾﴾ (البقرة٣٨).

ففي هذه الآية التفات لأنه انتقل من الضمير الموضوع للجمع أو المعظم نفسه – في قوله"قلنا" إلى الضمير الخاص بالمتكلم المفرد – في قوله:"مني" وحكمه هذا الانتقال هنا أن الهدى لا يكون إلا منه وحده تعالى فناسب الضمير الخاص كونه لا هادي إلا هو تعالى فأعطى الخاص الذي لا يشاركه فيه غيره الضمير الخاص الذي لا يحتمل غيره تعالى[3].

١٣- الالتفات من الجمع إلى التثنية:

كقوله تعالى: ﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴿٣٣﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴾(الرحمن، ٣٣-٣٥).

---

(١) الكشاف ٢/٣٤٦-٣٤٧.

(٢) البرهان٣/٣٣٥.

(٣) البحر المحيط١/٣٢١، وانظر البرهان٣/٣٣٥.

والالتفات في قوله"إن استطعتم أن تنفذوا" "فانفذوا لا تنفــذون إلا بســلطان" بصيغة الجمع إلى التثنية في قوله"عليكما" " فلا تنتصران".

قال ابن الجوزي: فثنى على اللفظ وجمع في قولــه "إن اســتطعتم " علــى المعنى[1].

وقال الرازي: كيف ثنى الضمير في قوله"عليكما " مع أنه جمع قبله بقولــه "إن استطعتم" والخطاب مع الطائفتين وقال" فلا تنتصران" وقال من قبل "لا تنفذون إلا بسلطان" تقول فيه لطيفة وهي أن قوله "إن استطعتم" لبيان عجزهم وعظمــة ملك الله فقال: إن استطعتم أن تنفذوا باجتماعكم وقوتكم فانفــذوا ولا تســتطيعون لعجزكم فقد بان عند اجتماعكم واعتضادكم بعضكم ببعض فهو عند افتراقكم أظهر، فهم خطاب عام مع كل أحد عند الانضمام إلى جميع مــن عــداه مــن الأعــوان والإخوان.

وأما قوله تعالى" يرسل عليكما" فهو لبيان الإرسال على النوعين لا على كل واحد منهما لأن جميع الإنس والجن لا يرسل عليهم العذاب والنار فهو يرسل على النوعين ويتخلص منه بعض منهما بفضل الله ولا يخرج أحد من الأقطار أصــلاً، وهذا يتأيد بما ذكرنا أنه قال: لا فرار لكم قبل الوقوع ولا خلاص لكم عند الوقوع لكن عدم الفرار وعدم الخلاص ليس بعام.

---

(١) زاد المسير، جـــ٨، ص١١٦.

والجواب الثاني: من حيث اللفظ وهو أن الخطاب مع المعشر فقوله"إن استطعتم" أيها المعشر وقوله "يرسل عليكما" ليس خطاباً مع النداء بل هو خطاب مع الحاضرين وهما نوعان وليس الكلام مذكوراً بحرف واو العطف حتى يكون النوعان مناديين في الأول وعند عدم التصريح بالنداء فالتنبيه أولى كقوله تعالى"فبأي آلاء ربكما تكذبان" وهذا يتأيد بقوله " سنفرغ لكم أيها الثقلان" وحيث صرح بالنداء جمع الضمير وقال بعد ذلك "فبأي آلاء ربكما" حيث لم يصرح بالنداء[1].

١٤- الالتفات من الماضي إلى الأمر:

كقوله تعالى:﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ (الأعراف٢٩)

الالتفات في قوله:" وأقيموا" بصيغة الأمر وذلك بعد قوله: " أمر" بالفعل الماضي وكان تقدير الكلام أمر ربي بالقسط وبإقامة وجوهكم عند كل مسجد، فعدل عن ذلك إلى فعل الأمر للعناية بتوكيده في نفوسهم فإن الصلاة من أوكد فرائض الله على عباده، ثم أتبعها بالإخلاص الذي هو عمل القلب، إذ عمل الجوارح لا يصح إلا بإخلاص النية"[2].

---

(١) التفسير الكبير، جـ٢٩، ص١٠٠-١٠١.

(٢) المثل السائر ١٢/٢.

١٥- الالتفات من المضارع إلى الأمر:

كقوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾﴾ (هود،٥٣، ٥٤).

فالالتفات في الآية في قوله:" واشهدوا" بصيغة الأمر، وذلك بعد قوله: "أشهد الله" بصيغة المضارع، ولم يقل وأشهدكم ليكون موازناً له، وبمعناه لأن إشهاده الله على البراءة من الشرك صحيح ثابت، وأما إشهادهم فما هو إلا تهاون بهم ودلالة على قلة المبالاة بأمرهم، ولذلك عدل به عن لفظ الأول لاختلاف ما بينهما وجيء به على لفظ الأمر كما يقول الرجل لمن يبس الثرى بينه وبينه أشهد علي أني أحبك تهكماً به واستهانة بحاله[١].

وقال الزمخشري: " فإن قلت: هلا قيل إني أشهد الله وأشهدكم قلت: لأن إشهاد الله على البراءة من الشرك إشهاد صحيح ثابت في معنى تثبيت التوحيد وشد معاقده، وأما إشهادهم فما هو إلا تهاون بدينهم ودلالة على قلة المبالاة بهم فحسب فعدل به عن لفظ الأول لاختلاف ما بينهما وجيء به على لفظ الأمر بالشهادة ... تهكماً بهم واستهانة بحالهم[٢].

---

(١) المثل السائر ٢/١٢.

(٢) الكشاف ٢/٣٨٢.

١٦- الالتفات من الماضي إلى المضارع:

كقولـــه تعـــالى:﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾ (البقرة،٨٧)

ففي هذه الآية لون جميل من الالتفات وهو التعبير عن الحديث الـــذي قـــد مضى بصيغة المضارع، ففي المقطع الأخير من الآية"ففريقاً كذبتم وفريقاً تقتلون" فعبر عن القتل بصيغة المضارع وهو موضوع الالتفات .

قال الزمخشري: فإن قلت: هلا قيل: " وفريقاً قتلتم" هو علـــى وجهـــين: أن تراد الحال الماضية لأن الأمر فظيع فأريد استحضاره في النفوس، وتصويره فـــي القلوب وأن يراد: وفريقاً تقتلونهم بعد لأنكم تحومون حول قتل محمد صـــلى الله عليه وسلم لولا أني أعصمه منكم"[(١)].

فالتعبير بالمضارع أوكد وأشد، لأن فيه استحضار الفعل حتى كأن الســـامع ينظر إلى الفاعل في حال وجود الفعل، وهذا لا يوجد في الفعل الماضـــي لأنـــه لا يتخيل السامع منه إلا فعلاً قد مضى من غير إحضار للصورة في حالـــة ســـماع الكلام الدال عليه.

١٧- الالتفات من المضارع إلى الماضي:

كقولـــه تعـــالى:﴿ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ﴾ (النمل، ٨٧).

---

(١) الكشاف ١٨٩/١.

ففي هذه الآية عبر عن المستقبل بصيغة الماضي فقال:"ففزع" بلفظ الماضي بعد قوله "ينفخ" وهو مضارع لنكتة وهي الإشعار بتحقق الفزع وثبوته وأنه كائن لا محالة، واقع على أهل السموات والأرض، لأن الفعل الماضي يدل على وجود الفعل وكونه مقطوعاً به"[1].

وفائدته: أن الفعل الماضي إذا أخذ به عن الفعل المستقبل الذي لم يوجد بعد كان ذلك أبلغ وأوكد في تحقيق الفعل وإيجاده لأن الفعل الماضي يعطي من المعنى أنه قد كان ووجد وإنما يفعل ذلك إذا كان الفعل المستقبل من الأشياء العظيمة التي يستعظم وجودها[2].

وكقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾﴾ (الحج،٦٣).

فعدل في الآية عن لفظ الماضي ههنا إلى المضارع فقال:"فتصبح" ولم يقل فأصبحت عطفاً على "أنزل" وذلك لإفادة بقاء أثر المطر زماناً بعد زمان، كما تقول: أنعم علي فلان عام كذا فأروح وأغدو شاكراً له ولو قلت: فرحت وغدوت لم يقع ذلك الموقع[3].

١٨- ويقرب من الالتفات نقل الكلام إلى غيره وإنما يفعل ذلك إذا ابتلي العاقل بخصم جاهل متعصب فيجب أن يقطع الكلام معه في تلك المسألة لأنه كلما

---

(١) الكشاف٣/٣٩١.
(٢) المثل السائر٢/١٥.
(٣) الكشاف٣/١٠٧.

كان خوضه معه أكثر كان بعده عن القبول أشد، فالوجه حينئذ أن يقطع الكلام معه في تلك المسألة، وأن يؤخذ في كلام آخر أجنبي ويطنب فيه بحيث ينسى الأول فإذا اشتغل خاطره به أدرج له أثناء الكلام الأجنبي مقدمة تناسب ذلك المطلب الأول ليتمكن من انقياده.

ومنه قوله تعالى: ﴿قٓ ۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ ۝١ بَلۡ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ فَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَيۡءٌ عَجِيبٌ ۝٢﴾(سورة ق ١-٢)

فهذا إنكار منهم للبعث واستبعاد فأعقب ذلك بما يشبه الالتفات بقوله: ﴿أَفَلَمۡ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوۡقَهُمۡ كَيۡفَ بَنَيۡنَٰهَا﴾ آية(٦)، إلى قوله: ﴿وَأَحۡيَيۡنَا بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗاۚ كَذَٰلِكَ ٱلۡخُرُوجُ ۝١١﴾ آية(١١) فبعد العدول عن مجاوبتهم في قولهم ﴿ذَٰلِكَ رَجۡعُۢ بَعِيدٞ ۝٣﴾ أية(٣) وذكر اختلافهم المسبب عن تكذيبهم قوله: ﴿بَلۡ كَذَّبُواْ بِٱلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ فَهُمۡ فِيٓ أَمۡرٖ مَّرِيجٍ ۝٥﴾ آية(٥) صرف تعالى الكلام إلى نبيه والمؤمنين فقال: ﴿أَفَلَمۡ يَنظُرُوٓاْ﴾ الآية(٦) إلى قوله: ﴿وَأَحۡيَيۡنَا بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗاۚ كَذَٰلِكَ ٱلۡخُرُوجُ ۝١١﴾ آية(١١) وذلك حكمة تدرك مشاهدة، لا يمكنهم التوقف في شيء منه ولا حفظ عنهم إنكاره، فعند تكرر هذا قال:" كذلك الخروج"[1].

١٩- ومن صيغ الالتفات قسم غريب ذكره ابن أبي الأصبع[2] وقال: وجاء في الكتاب العزيز من الالتفات قسم غريب جداً، لم أظفر في الشعر له بمثال، هداني

---

(١) البرهان (٣/٣٣٣-٣٣٤).

(٢) هو: عبد العظيم بن عبد الواحد بن أبي الأصبع العدواني البغدادي ثم المصري، شاعر، مولده ووفاته بمصر، له مؤلفات حسنة، توفي سنة٦٥٤هـ. (الأعلام٤/٣٠).

الله إلى الوقوع عليه، وهو : أن يقدم المتكلم في كلامه مذكورين مرتين، ثم يخبر عن الأول منهما وينصرف عن الإخبار عنه إلى الإخبار عن الثاني، ثم يعود فينصرف عن الإخبار عن الثاني إلى الإخبار عن الأول كقوله تعالى:﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴾ انصرف عن الإخبار عن الإنسان إلى الإخبار عن ربه تبارك وتعالى، ثم قال منصرفاً عن الإخبار عن الرب عز وجل إلى الإخبار عن الإنسان ﴿ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾ ﴾ وعقب عليه قائلاً: وهذا يحسن أن يسمى التفات الضمائر"[1].

قلت: كلام ابن أبي الأصبع يتأتى على قول قتادة وسفيان الثوري حيث قالا: وإن الله على ذلك لشهيد، لكن على القول الثاني، وهو عود الضمير على الإنسان، وهو قول محمد بن كعب القرظي – فلا يكون ثمة التفات في الآيات[2]. والله أعلم.

---

(١) بديع القرآن لابن أبي الإصبع، ص٤٥.

(٢) انظر هذين القولين في تفسير ابن كثير ٥٤٣/٤، وانظر التحرير والتنوير ٤٨٩٠/١، حيث قال ابن عاشور:" وضمير" وأنه على ذلك لشهيد" عائد إلى الإنسان على حسب الظاهر الذي يقتضيه انتساق الضمائر واتحاد المتحدث عنه وهو قول الجمهور".

الخاتمة وفيها أهم النتائج

(١) أسلوب الالتفات يختص باللغة العربية دون غيرها ولذلك يسمى بالشجاعة العربية لأن الرجل الشجاع يركب ما لا يستطيعه غيره، وكـــذلك الالتفـــات يختص باللغة العربية دون غيرها.

(٢) لعل أول من أشار إلى هذا الأسلوب الإمام الفراء المتوفى سنة ٢٠٧هـــــ، في كتابه معاني القرآن.

(٣) للالتفات فوائد عامة وهي التفنن في الانتقال من أسلوب إلى آخر لتنشيط السامع، وصيانة السمع عبر الضجر والملال والسآمة من الاستمرار على منوال واحد.

(٤) وله فوائد خاصة، وهذه الفوائد يختص كل موضع منها باختلاف محله وما يقصده المتكلم.

فهرس المصادر والمراجع

(١) الإتقان في علوم القرآن، لمحمد بن بهادر الزركشي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة، بيروت، عام ١٣٩١هـ.

(٢) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، لأبي السعود محمد بن محمد العمادي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

(٣) أضواء البيان لمحمد الأمين بن محمد الشنقيطي، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، ١٤١٥هـ.

(٤) الأعلام، لخير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت، ط٥، سنة ١٩٨٠م.

(٥) الإكسير في علم التفسير، لسليمان بن عبد القوي الطوفي، تحقيق د.عبد القادر حسين، مكتبة الآداب، القاهرة، عام ١٩٧٧م.

(٦) البحر المحيط لمحمد بن يوسف المشهور بأبي حيان الأندلسي ، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، عام ١٤٢٢هـ.

(٧) بديع القرآن لعبد العظيم بن عبد الواحد ابن أبي الأصبع العدواني، تحقيق حنفي محمد شرف، مكتبة نهضة مصر، ط١.

(٨) البرهان في علوم القرآن لمحمد بن بهادر الزركشي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة، بيروت، عام ١٣٩١هـ.

(٩) تاج العروس لمحمد مرتضى الزبيدي، لمجموعة من المحققين، دار الهداية.

(١٠) التحرير والتنوير لمحمد طاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر، تونس.

(١١) تفسير البيضاوي المسمى أنوار التنزيل وأسرار التأويل لأبي سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي، دار الفكر، بيروت.

(١٢) تفسير القرآن العظيم لعبد العظيم بن عبد الواحد ابن أبي الأصبع العدواني، تحقيق حنفي محمد شرف، مكتبة نهضة مصر، ط١.

(١٣) التفسير الكبير لفخر الدين محمد بن عمر التميمي الرازي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٢١هـ.

(١٤) تفسير النسفي المسمى مدارك التنزيل وحقائق التأويل لعبد الله بن أحمد النسفي.

(١٥) خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب لعبد القادر بن عمر البغدادي، بيروت، ١٩٩٨م، الطبعة الأولى، تحقيق محمد نبيل طريفي وأميل بديع يعقوب.

(١٦) ديوان علقمة الفحل – دار النشر بدون.

(١٧) روح المعاني لأبي الفضل شهاب الدين السيد محمود الألوسي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

(١٨) سير أعلام النبلاء، لأبي عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، اعتنى به حسان عبد المنان، بيت الأفكار الدولية.

(١٩) شذرات الذهب لعبد الحي بن أحمد بن محمد الحنبلي، تحقيق عبد القادر ومحمود الأرنؤوط، دار ابن كثير، دمشق، ط١، سنة ١٤٠٦هـ.

(٢٠) طبقات المفسرين لأحمد محمد الداودي، تحقيق سليمان بن صالح الخزمي، مكتبة العلوم والحكم، السعودية، ط١، عام١٤١٧هـ.

(٢١) طبقات فحول الشعراء لمحمد بن سلام الجمحي، دار المدني، جدة، تحقيق محمود محمد شاكر.
(٢٢) طبقات المفسرين لجلال الدين عبد الرحمن السيوطي، تحقيق علي محمد عمر، مكتبة وهبة، القاهرة، ط١، عام١٣٩٦هـ.
(٢٣) فتح القدير لمحمد بن علي الشوكاني، دار الفكر، بيروت.
(٢٤) الفوائد المشوق إلى علوم القرآن، لابن القيم الجوزية، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، عام ١٤٠٨هـ.
(٢٥) الكشاف، لأبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري، تحقيق عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
(٢٦) لسان العرب، لمحمد بن مكرم بن منظور، دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى.
(٢٧) المثل السائر، لأبي الفتح ضياء الدين نصر الله بن محمد المعروف بابن الأثير الجزري، تحقيق محمد محي الدين، المكتبة العصرية، بيورت.
(٢٨) المعاني في ضوء أساليب القرآن، للدكتور عبد الفتاح لاشين، كلية البنات الإسلامية، جامعة الأزهر، توزيع المكتبة الأموية، ط٤، عام١٩٨٣م.
(٢٩) معاني القرآن، لأبي زكريا يحيى بن زياد الفراء، عالم الكتب، بيروت، ط٣، عام١٤٠٣هـ.
(٣٠) مقاييس اللغة، لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، تحقيق عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت، ط٢، عام١٤٢٠هـ.
(٣١) وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، لأبي العباس شمس الدين حمد بن محمد بن خلكان، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، لبنان.